الفصل الثالث

الحلم بالنظريات

دخل طبيب الأعصاب ألن سلفرستاين (Allen Silverstein) إحدى قاعات المرضى عام ١٩٥٠ فى مستشفى بلفيو فى نيويورك. كانت هذه الفترة هى فترة انتشار موجة التفسير الفرويدى للأمراض النفسية. رأى سلفرستاين فى القاعة سيدة صغيرة السن مصابة بنوبة صرع، تعض على شفتيها وتتبول بغير إرادتها. وشاهد الأطباء يقفون واحداً بعد الآخر فيصفون حالتها بأنها «حالة متقدمة من حالات ممارسة العادة السرية». يقول سيلفرستاين - تعليقاً على ذلك - بأنه اتخذ قراراً فى الحال بالتوقف عن الدراسة فى هذا الجو، وتحول إلى دراسة الجهاز العصبى للبزاقة البحرية.

الحالات الست المنشورة

ترتكز كل نظريات فرويد على ست حالات منشورة :

١ - كانت الحالة الأولى هى «دورا» وهى سيدة فى سن الثامنة عشر تشكو من هستيريا. قالت دورا إن والدها على علاقة بزوجة صديق للعائلة، وأن هذا الصديق كان يحاول التقرب منها بتسهيل من والدها لتسهيل علاقته بالزوجة. ولكن هذا التفسير البسيط المنطقى لهستيريا دورا لم يكن يشفى غليل فرويد : فهى فى حقيقة الأمر (فى رأيه) تريد فى عقلها الباطن توطيد علاقة جنسية بأبيها.

وتركت الفتاة عيادة فرويد بعد ثلاثة أشهر.

٢ - سيدة (بدون اسم) كان فرويد يعالجها من اللواط، ولم تتحسن، ولم تستمر فى العلاج.

٣ - قصة هانز : كان هانز الصغير يشكو من الخوف من الجياد. فسر فرويد هذا الخوف تفسيراً مبنيًّا على «عقدة أوديب». حاول هانز شرح السبب البسيط للخوف، وهو أنه شاهد فى طفولته حادث عربة يجرها حصان، ولكن فرويد أصر على تفسيره... ولم يتحسن هانز.

٤ - قصة لانزر، الضابط بجيش النمسا، الذى كان يخشى الفئران. كان أيضاً يخشى أن تأكل الفئران صديقته ووالده. وفسر فرويد الخوف تفسيراً عبقريًّا(!) لفظيًّا:

- فالوالد كان مدمناً للقمار، والقمار يسمى باللغة الألمانية Spielratte.

- والصديقة كانت ستتزوج لانزر، والزوجة باللغة الألمانية Hieraten.

كان تفسير فرويد للخوف من الفئران هو أن لانزر كانت لديه رغبة خفية مكبوتة فى أن يقيم علاقة جنسية شرجية مع والده وصديقته، وأن هذه الرغبة قد أدت إلى هذا الخوف من الفئران. وزعم فرويد أن السبب فى هذه الرغبة كان إحباط الوالد للنمو الجنسى الطبيعى للانزر بتهديده المستمر له بالخصى. وقال إن مجرد شرح الأمر للانزر أدى إلى شفائه (!؟!).

٥ ـ حالة دافيل شربر، وهو مريض كتب مذكرة لفرويد يقول فيها إنه لديه مشاعر غير مفهومة بالخوف والاختناق، وبأنه يتحول إلى امرأة وشخص فرويد الحالة بأن شربر مصاب بهوس (Delusional paranoia) نتج عن رغبة مكبوتة فى اللواط مع والده.

٦ ـ سرجى بانكيف أو الرجل الذئب. كان بانكيف يردد حلماً انتابه: «كنت أنام على سريرى، وفتح الشباك بعنف، فرأيت أربع ذئاب بيض تجلس على شجرة جوز أمام الشباك، وفى خوف شديد من الذئاب صرخت واستيقظت».

على أساس هذا الحلم، استنتج فرويد أن بانكيف قد دخل فى طفولته على والديه أثناء ممارستهما للجنس، لأن الذئاب بيضاء مثل الملابس الداخلية.

وعندما أجرى الصحفى النمساوى أوبهولزر حديثاً مع المريض، قال إنه لازال يعانى من الحالة نفسها، وأنه لم يقتنع إطلاقاً بتفسير فرويد.

يعتقد أغلب علماء الأمراض النفسية أن نظريات فرويد مجرد هراء. فبادئ ذى بدء فإن هذه الحالات الست تمثل كل ما نشره فرويد فى حياته من الحالات المرضية. وكما ذكرنا من قبل، فإن طرح السؤال، ثم فرض نظرية، ثم إجراء تجارب عديدة لإثباتها أو تكذيبها، ثم النشر تمثل خطوات أساسية فى أى عمل علمى جاد. ولكن فرويد لم يفعل.

لكن لماذا صنع فرويد ذلك ؟

إنها رغبة «صبى الساحر» فى المجد السريع.

صبى الساحر فرويد

ما قصة هذا الصبى ؟

فى عام ١٨٨٥ كان فرويد طبيباً صغيراً فى مستشفى فى فيينا، وأصيب فى هذه الفترة باكتئاب. فرغم أنه كان طبيباً مرموقاً فى علم أمراض الأعصاب، إلا أن عيادته كانت خاوية.

كان فرويد قد سمع فى عام ١٨٨٤ عن تجارب عن دواء جديد مستخرج من نبات الكوكا فى أمريكا اللاتينية. عند تجربته للدواء على نفسه وجد أنه قد عالجه تماماً من الاكتئاب، وأنه قد أعاد للحياة رونقها وجدد طاقته، بل ودله على الطريق إلى إعادة المرضى لعيادته... وهو أن يصفه لمرضاه.

وصف فرويد الدواء أيضاً لأقاربه ولمعارفه وكتب الكثير عن تأثيره السحرى وجرب تعاطيه استنشاقاً وحقناً وتدخيناً، بل وصنع منه أنواعاً من السيجار الفاخر. وكان يتعاطاه قبل أى حفل فيصبح نجم الحفل.

وأصبح الكوكايين مودة العصر، بل إن سير أرثر كونان دويل (Sir Arthur Connan Doyle) عندما ابتدع شخصية شرلوك هولمز، جعل من الكوكايين مصدراً لذكائه وقوة ملاحظاته.

بعد عامين من استعمال الكوكايين، بدأت الدوريات العلمية فى التحدث عن إدمانه ومضاره، فانسحب فرويد بهدوء من الميدان وزعم أنه امتنع عن تعاطيه.

* * *

مع شاركو

فى هذا الوقت تقدم فرويد لطلب إجازة دراسية للعمل مع الأستاذ شاركو (Prof. Charcot) أحد الإعلام الطبية فى باريس. كان شاركو يستعمل التنويم (Mesmerism) فى العلاج، وبينت بعض دراساته أن لبعض المرضى شخصية أخرى تظهر بالتنويم. وهكذا تولد لدى فرويد، كما اعترف بنفسه فيما بعد، الشعور بإمكانية «وجود أفكار ومشاعر مخفية عن العقل الواعى للإنسان» وهى فكرة صحيحة، وإن لم يكن فرويد أول من فكر فيها.

مع بروير

عندما عاد فرويد من باريس إلى فيينا، نشر ورقة عن الهستيريا تتحدث عن أصول غير عضوية لها موجودة فى العقل الباطن، مما أثار غضب أساتذته عليه. وهنا أيضاً لم يكن فرويد أول من فكر فى فكرته هذه. فقد سبقه إليها زميله بروير (Brueuer)، الذى كان يتحدث منذ عام ١٨٨٠ عما أسماه «العلاج بالكلام» (Talking cure).

عمل فرويد فترة مع بروير. ولكن علاقتهما، كأغلب علاقات فرويد مع أساتذته وزملائه، انتهت نهاية غير سعيدة. كانت نظريات فرويد وبروير تفترض أن هناك «تهيجات» (Excitation) للعقل، وأن هذه التهيجات تتجمع وتزيد أو تنقص، وأنها تنفجر فى وقت ما على شكل مرض نفسى.

بعد فترة طور فرويد الفكرة بأن زعم أن الأمراض النفسية عموماً تنتج عن اعتداءات جنسية فى الطفولة ارتكبها بالغون أو أطفال كبار. وهنا، وفى عام ١٨٩٠، بلغت الخصومة بين بروير وفرويد أقصاها. فقد أنف بروير ومعه أغلب العاملين فى الحقل الطبى من نظريات فرويد واعتقدوا أن ولع فرويد بالتفسير الجنسى للأمراض النفسية كارثة على العلم.

مع فلايس

ثم بدأت علاقة بين فرويد وطبيب نمساوى يدعى ويلهام فلايس Wilhelm Flies. كانت لهذا الطبيب أفكار غريبة، منها مثلاً أنه كان يعتقد أن استجابات الجسد والنفس لها دورات حول أرقام ٢٣، ٢٨، وكان يؤمن أن الحياة الجنسية للإنسان تبدأ

من الطفولة، وهى فكرة تبناها فرويد أيضاً بحماس، فتحدث عن «التثبيت الجنسى الطفولى» (Infantile libidal fixation) وتبنى فلايس أيضاً فكرة أن كل الآدميين عموماً مزدوجى الجنس (Bisexual)، وهى فكرة تبناها أيضاً فرويد ونسبها لنفسه.

* * *

فى نهاية القرن، أنهى فرويد أول كتبه «عن تفسير الأحلام» (On the interpretation of dreams) ، وفى الوقت نفسه بدأ يشكو من أمراض عديدة نفسية جسدية (Psychosomatic)، واتهم فلايس بانه هو المسئول عن هذه الأمراض، فقد كره فلايس مثلما كره غيره من زملائه، الذين سرق أفكارهم وانتحل نظرياتهم. وقد فعل الشئ نفسه مع يونج (Jung) وبدأ يعتبر فلايس أعدى أعدائه.

* * *

يوضح ديودنى فى كتابه الجميل الخطأ الأساسى الذى ارتكبه فرويد فى حق العلم، فيقول:

خيال خصيب

فى مجالات العلوم الطبيعية تحد التجارب من الخيال الخصيب، ولكن فى «علم» العلاج النفسى الجديد لم تكن هناك إجراءات تجريبية لتحد من خيال فرويد الخصيب.

وهكذا استمر فرويد فى غيه وفى الدفاع الشديد عن أفكاره ونظرياته، رافضاً أى نقض لها، متهماً كل ناقديه بكافة النقائص النفسية.

وتعمد فرويد أن يخلق من نفسه أسطورة كرسها بان أحرق أوراقه الخاصة فى عام ١٩٠٧.

* * *

أين الخطأ

تجاهل فرويد فى نظرياته خطوتين مهمتين فى البحث العلمى:

التجربة ... والنشر

واستفادة العديد من الناس من التحليل النفسى لاتدل على شئ، فعديد من الناس تتحسن حالتهم المرضية بالتعامل مع أنواع مختلفة من الدجل. ولكن الدجالين لايدعون أن ممارستهم نوع من العلم، أما فرويد فإنه يفعل.

تطور ممارسة العلاج النفسى

تطورت اليوم ممارسة العلاج النفسى:

أولاً - بالكمياويات

ثانياً - بدراسة تشريح الجهاز العصبى. والذى يبدأ كما قال دويدنى فى أول الفصل بتشريح البزاقة البحرية «أبلازيا» (Aplasia).

نعم إن المشوار طويل.

نعم إن المشوار بين ألف عصبونة فى البزاقة إلى تريليونات من العصبونات فى المخ البشرى!

ولكن ... هكذا العلم.